

المدرسة العقلية القديمة

ناصر بن عبد الكريم العقل
المحاضر بقسم العقيدة والمذاهب
المعاصرة بكلية أصول الدين

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :
فإنَّ أول شبهة واعتراض عقلي حدث مقابل أمر الله تعالى ، ما وقع من ابليس ^(١) حين
اعترض على أمر ربِّه عندما أمره بالسجود لآدم ، فقال ابليس معترضاً وعاصياً :
« أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا » ^(٢)

« قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » ^(٣)

وهكذا بات بذور الشر ؛ فقد جعل الله للشيطان على الانسان سبيلاً ابتلاءً واختباراً ، الا
عباد الله المؤمنين ، وما زال الشيطان يَسْتَفِزُّ بنى الانسان بِخِيَلِهِ وَرَجَلِهِ ، ويشاركهم أموالهم
وأولادهم وبعدهم ، وما يعدهم الشيطان الا غروراً .
وقد بدأت الشبهات العقلية من الانسان مع بداية حياته في الأرض ، مقابل أمر الله
ووحيه ، كما حدث من قوم نوح حين بلغهم رسالة ربه فقالوا له :
« إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ^(٤)

وقال الله عنهم :
« فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا
وَمَا نَرَاكَ إِلَّا تَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ
عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » ^(٥)

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني - حاشية الفصل لابن حزم - الجزء الأول ص ١٥ طبعة محمد علي صبيح - القاهرة .

(٢) (٦١ الاسراء) .

(٣) (١٢ الاعراف) .

(٤) (٦٠ الاعراف) .

(٥) (٢٧ هود) .

وقوم صالح :

« قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ » (١)

وقوم هود اذ قالوا له :

« يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » (٢)

وهكذا وجد الانحراف في بعض أفراد البشرية ، ونفورهم من دعوة التوحيد الى الشرك والوثنية ، ووقوفهم أمام التوجيهات والأوامر الالهية التي جاءت بها الرسل ، موقف المعارض المجادل الشاك في صحة صدورها عن الله ، لذلك توالى النبوات في تلك الأمم ، قال تعالى :

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » (٣)
« ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا » (٤)

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا » (٥)
« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ » (٦)

(١) (٦٢ هود) .

(٢) (٥٣ هود) .

(٣) (٢٤ فاطر) .

(٤) (٤٤ المؤمنون) .

(٥) (٣٦ النحل) .

(٦) (٤٧ يونس) .

وهكذا يتبين مما سبق أن دعوة التوحيد هي الأصل على امتداد التاريخ الانساني كما أن الشرك والوثنية موغلة في القدم ، لكن العقلية الحديثة تذهب الى أن الشرك هو الأصل ، وبداية التدين والتوحيد جاءت متأخرة ، وهذا تصوّر خاطيء كل الخطأ ، فإن أدلة الشرع والكشوفات العلمية الحديثة والآثار أثبتت أن التوحيد سابق للشرك وأن الاصل في الانسان انه موحد كما ورد في قصص آدم عليه السلام ، وأن الشرك والظلم أمر طارئ في تاريخ الانسان . ونجد أن أكثر الناس انحرافا في استعمال العقل ، وجراً على الله تعالى ورسله (عبر التاريخ البشرى كلّهُ) : هم بنو اسرائيل ، الذين كان لهم دور كبير في تحريف التوراة والانجيل ، واضلال النصارى ، ثم بذّر الإتجاهات العقلية في الاسلام . كما سنرى .

أما عن نشأة الإتجاهات العقلية في الاسلام فان هذا يتمثل في اتجاهين : أحدهما : اعتراضات المشركين وأهل الكتاب على الرسول صلى الله عليه وسلم والرسالة والوحي والقرآن ومبادئ الاسلام . وقد تصدى لها القرآن وقضى عليها بشكل حاسم . والثاني : شبه المناققين ودسائسهم ، داخل المجتمع الاسلامي الأول ، والتي تعتبر بحق بذور الفرقه ، والاتجاهات العقلية الضالة القديمة والحديثة في الاسلام ، فقد عارضوا حكم الله ورسوله ، وحكّموا عقوضم وأهواءهم ومصالحهم الشخصية ، وجادلوا بالباطل حين نهوا عن الجدل^(١) وقد صور القرآن مآكرهم وأساليبهم في ذلك ، فقال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ » (٢)

« يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا » (٣)
« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » (٤)

ومواقفهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحرب والسلم مستفيضة ، تتمثل في زعيمهم عبدالله بن أبي بن سلول ، ومنهم « ذو الخويصرة » الذي قال عنه وعن حزبه ،

(١) "نظر الملل والنحل للشهرستاني - حاشية الفصل لابن حزم ج ١ ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) (١٣ البقرة) .

(٣) (١٥٤ آل عمران) .

(٤) (٦٥ التوبة) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اعترض على قسمة الغنائم بعد حنين :
« دَعُوهُ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شِيعَةٌ يَتَّبِعُونَهُ فِي الدِّينِ حَتَّى يُخْرِجُوا مِنْهُ كَمَا يُخْرِجُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمِيَّةِ » الحديث^(١)

(ذكره ابن كثير في السيرة ، ورواه مسلم والبخارى وغيرهما بنحوه)^(٢)
ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، والمتفقون بين ظهراني المسلمين :
« يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ »^(٣)

يعملون في صفوف المسلمين من الداخل بإشاعة الشُّبه والتفريق بين المؤمنين ، وما زال أمرهم غير ظاهر حتى جاء ابن السَّوَّاء - يهودي أظهر الاسلام في خلافة عثمان رضى الله عنه - وهو عبد الله بن سبأ ، فتجراً لإظهار شبهات المنافقين بين ضعاف الايمان وأصحاب الأهواء ، فرفعوا رؤسهم ظاهرين وأشعلوا الفتنة بين المسلمين .
فأخذ ابن السوداء هذا يؤلب على عثمان رضى الله عنه ، ثم أظهر القول بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم بإمامة عليّ وذريته^(٤) وبذلك استخفَّ قوماً حديثي عهد بكفر ، وآخرون في قلوبهم مرض ، فبدأت بدعة التشيع والرفض^(٥) .
وأسفرت جهود المنافقين ، عن الفتنة المشهورة بين الصحابة رضى الله عنهم والتي أسفرت أيضاً عن خروج أوّل الفرق (الخوارج والشيعة) وهما على طرفي نقيض ، فالأولى تُكفِّر عليّاً والحكمين رضى الله عنهم^(٦) ، وتُكفِّر صاحب الكبيرة^(٧) ، والثانية على العكس من ذلك ؛ فتعلوا في عليّ رضى الله عنه حتى التقديس ، وتخط من شأن باقي الصحابة والخلفاء الراشدين ، حتى الرفض والسب المشين^(٨) ، والكل جعلوا عقولهم موازيناً للحق ، بها يخفضون وبها يرفعون ، ويخضعون لها النصوص الثابتة عن الله ورسوله ، ويضربون آيات الله

(١) راجع السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٦٨٧ طبعة ١٣٩٣ تحقيق مصطفى عبد الواحد .

(٢) راجع مسلم كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم حديث رقم ١٤٢ .

(٣) (٩ البقرة) .

(٤) راجع تاريخ الفرق الاسلامية لعلى الغزالي ص ١٧ مع الحاشية .

(٥) راجع فتاوى بن تيمية - مجلد (٤) ص ١٠٢ .

(٦) الحكمان هما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص رضى الله عنهما . راجع مقالات الاسلاميين للإمام أبي الحسن الأشعري جزء (٢) ص ١٤١ الطبعة الثانية .

(٧) راجع شرح الطحاوية ص ٣١٧ .

(٨) المصدر السابق ص ٤١٤ - ٤١٨ ، ٤٣٨ - ٤٢٩ .

بعضها ببعض ، فما وافق هواهم استدلووا به ، وما خالفها رفضوه أو حَرَّفُوهُ ، وانفتح بذلك بابُ الجُرْأَةِ العَقْلِيَّةِ ، واطهار البدع والآراء الشاذة ، والشُبْه في العقيدة والدين حتى ظهر القول بالقدر ، ومن قال بها معبد الجهني وغيلان الدمشقي ، وقد أخذها عن أبي يونس النصراني ، وكانت امتدادا للأفكار النصرانية ، واليهودية الموروثة عن اليونان ، واشتهرت آراء غيلان الدمشقي ، العقلية حول نبي الصفات ، وإن العبد قادر على خلق أفعاله : وأن الإيمان معرفة وقول فقط ، وأن القرآن مخلوق^(١) .

ثم تلقى هذه الأفكار كل من الجَعْدِ بن دِرْهَم ، والجَهْم بن صَفْوَان ، عن الزنادقة واليهود والنصارى ، وعن مَعْبَد وغيلان ، وغيرهما .

فقد قال الجعد بن درهم بخلق القرآن ، وأظهر التعطيل وأن الله لم يُكَلِّمْ موسى تَكْلِيمًا ، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا^(٢) . وأما الجهم بن صفوان فقد أول آيات الصفات ونفى أن تكون لله صفات غير ذاته ، كما نفى الرؤية لله تعالى يوم القيامة وقال بخلق القرآن أيضا^(٣) ثم تابعه عمرو بن عبيد المعتزلي فيما بعد^(٤) .

واستمر الأمر على هذه الحال طيلة القرن الأول ، ولم يستفحل فيه أمر الفرق بل كان أصحاب هذه الآراء يُطَارَدُونَ وَيُشْرَدُونَ وَيُقَتَّلُونَ ، ولم تكن لهم أصول شاملة مُقَعَّدَةٌ ، حتى جاءت المعتزلة مع بداية القرن الثاني الهجري .

وحيث أتى - في مثل هذا البحث - لا أستطيع أن أستوفى الكلام عن الفرق العقلية التي ظهرت في المجتمع الاسلامي الأول ، رأيت أن أقصر الكلام على المعتزلة ، لأنها تمثل - بحق - المدرسة العقلية القديمة أصدق تمثيل ، فلها أصولها وقواعدها ، وآراؤها الشاملة لجميع مسائل العقيدة وأصول الدين وفروعه ، وقد استوعبت أهم آراء الفرق التي سبقتها مثل القدرية والجهمية والمعتزلة ، كما أن الفرق التي لحقتها إنما كانت عالة عليها ، كإخوان الصفا - مثلا - ثم إنها أجزأ الفرق في اعلان آرائها العقلية وهي أول فرقة رفعت شعار الحرية للعقل وتقديسه ، وتقديمه على النص دون موارد أو التواء ، وعلى هذا ساقصر القول عليها في هذا البحث ، رغبة في الإيجاز والوضوح فأقول :

بدأت حركة الاعتزال ، في أوائل المائة الثانية للهجرة ، عندما أثيرت في مجلس الحسن البصري المسألة المشهورة ، مسألة مرتكب الكبيرة ، اذ قال الحسن : بأنه فاسق ، فانبهر

(١) راجع تاريخ الفرق الاسلامية - لعل مصطفى الغرابي - ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ١٢ ص ٣٠١ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٥٠٤ .

(٣) راجع الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل تعليق وتحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة ص ١٠٣ - ١٠٤ وراجع أيضا تقديم الدكتور عميرة على الكتاب نفسه ص ٤٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠٤ .

واصل بن عطاء وقال : بأنه في المتزلة بين المتزلتين ، ثم قام الى سارية في المسجد ، وانضم اليه تلاميذه وأخذ ينشر فكرته في هذه المسألة وغيرها ، فقال الحسن : اعتزلنا واصل ، فسموا المعتزلة^(١) ، ورجَّح الباحثون أن هذه الحادثة وقعت ما بين سنة ١٠٠ - ١١٠ هجري^(٢) ، وكثر تلاميذ واصل ، وانضم اليه عمرو بن عبيد^(٣) ، حتى شكلوا مذهباً (فرقة) لجأ اليه الشعوبيون والزنادقة ، وأصحاب الملل والنحل المغلوبة ، والمنافقون ، والذين في قلوبهم مرض أو حقد على الاسلام ، تحسباً للكيد له ، ولفث سمومهم وانحرافاتهم حتى شكَّلوا بذلك جبهة موحدة ، لمواجهة العقيدة الاسلامية الصافية ، التي يمثلها أهل السنة والجماعة .

وقد أثبت كثير من المحققين : بأن المعتزلة استمدوا أفكارهم من مصادر غير اسلامية ، باتصالهم بكتب الفلاسفة وأهل الكلام ، من اليونان ونحوهم ، وأنها امتداد لما كان ينادى به غيلان الدمشقي ، ومعبد الجهني ، والجعد ابن درهم ، والجهم بن صفوان ، كما أنهم اتصلوا بالصائبة والفلاسفة من أهل حران ، من طريق الجعد وغيره^(٤) .

واستمد هؤلاء فكرة التعطيل ونفي الصفات عن لبيد بن الأعصم اليهودي ، الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم^(٥) .

وقد أخذ الجعد - أحد أساتذتهم - فكرة خلق القرآن عن طالوت الزنديق تلميذ لبيد الأعصم ، وقد صَنَّفَ طالوت هذا كتاباً في خلق القرآن^(٦) .

كما تتلمذوا - أي المعتزلة - على بشر المريسي ، وكان أبوه يهودياً ، وقد قال بشرُ بخلق القرآن^(٧) ، وقال بهذه البدعة أيضاً المغيرة ابن سعيد العجلي من أتباع عبدالله بن سبأ اليهودي^(٨) .

وبهذا نعرف بأن فكرة القول بخلق القرآن ، التي تبناها المعتزلة فكرة يهودية ، جاءت عن اليهود من أكثر من طريق ، ثم تبناها كل من الجعد بن درهم ، والجهم بن صفوان ، وهما من أساتذة المعتزلة كما مرّ .

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني ص ٧٢ حاشية الفصل جزء ١ وأنظر أيضاً شرح الطحاوية تحقيق أحمد شاكر ص ٤٦٨ .

(٢) راجع (المعتزلة) لزهدي حسن جارالله ص ١٢ .

(٣) راجع شرح الطحاوية تحقيق أحمد شاكر ص ٤٦٨ .

(٤) راجع شرح الطحاوية تحقيق أحمد شاكر ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ - والمعتزلة لزهدي حسن جارالله ص ٢٢ ، ٢٣ ومجموع

الفتاوى لابن تيمية ج ١٢ ص ٣٠١ ، ٤٢٠ و ج ١٣ ص ١٨٢ - ١٨٤ و ج ٥ .

(٥) المصادر السابقة . راجع شرح الطحاوية ص ٤٧٠ وفتاوى ابن تيمية ج ٥ .

(٦) المصادر السابقة .

(٧) راجع مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٥ ص ٢٢ - ٢٣ ، ٣٤٩ - ٣٥٢ .

(٨) راجع المعتزلة لزهدي حسن جارالله ص ٢٢ ، ٢٣ .

وقد استمد المعتزلة - كذلك - عن النصارى بعض البدع ، فأخذوا عن غيلان الدمشقي ، ويحيى الدمشقي - وهما نصرانيان - بدعة القول بالقدر ، وخلق الإنسان لأفعاله ، وأن الله تعالى لا يقدر على فعل الشر (القبيح) كما تلقوا هذه البدع نفسها عن طريق معبد الجهني الزنديق ، والذي تلقاها أيضا من ابي يونس النصراني ^(١) ، ومثلها بدعة القول بالمعتزلة بين المتزلتين ، انما ظهرت أول ما ظهرت عن يحيى الدمشقي ، وأبى قرة النصرانيين ^(٢) ، ثم بقيت مغمورة حتى قال بها واصل بن عطاء المعتزلي وأشهرها .

كذلك بدعة الصلاح والأصلح ، ونفي الصفات ، انما جاءت عن النصارى وقال بها المعتزلة عنهم ^(٣) .

وهكذا .. فالمقام لا يتسع لسرد واستعراض جميع الأفكار التي جاء بها المعتزلة ، واستمدوها من الأديان والملل والفلسفات الأجنبية فقد أثبت الباحثون المحققون ^(٤) أن أهم أسباب ظهور الفرق المنحرفة في الاسلام - وعلى رأسها المعتزلة - انما جاء عن طريق أتباع الأديان والفلسفات والحضارات الأخرى التي دخلت ضمن الاطار الجغرافي للدولة الاسلامية بعد الفتوح ^(٥) .

ويخطيء القائلون بأن أصول الفرق المنحرفة ، كالقدرية ، أو الشيعة ، أو المعتزلة ونحوها انما كانت أصولا اسلامية ، ثم انخرفت ، والصحيح أن بذور هذه الفرق كانت بذورا غير اسلامية ، يهودية أو نصرانية ، أو وثنية أو غيرها من الملل والنحل ، ثم اصطبغت بالصبغة الاسلامية لمعايشة التيار الاسلامي المهيمن على الحياة ، ثم لم تلبث أن ظهرت جلية بأغلفة وقوالب ظاهرها الاسلام ، وباطنها فيه الكفر والضلال فانخدع بها بعض المسلمين ، وأكبر دليل على ذلك ، أنك لا تجد أصلا في أصول هذه الفرق الا وهو موجود في بعض الملل والأديان .

المهم ... أن المعتزلة نتيجة اتجاهها العقلي ، وقعت في أخطاء وانحرافات جذرية ، جعلتها تنحو بعيدا عن العقيدة الاسلامية الصافية ، كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ونحاول أن نلخص أهم المبادئ والأصول العقلية التي انخرفت بها المعتزلة على الخصوص ، والفرق العقلية الأخرى على وجه العموم فنها :

١ - تقديم العقل على النص - السمع - وتحكيم عقولهم في كلام الله وسنة رسوله صلى الله

(١) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧ - ٢٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧ - ٢٩ .

(٤) راجع المصدرين السابقين والمذاهب الاسلامية لأبي زهرة ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٥) راجع المذاهب الاسلامية لأبي زهرة ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

عليه وسلم الصحيحة ، فما وافق عقولهم قبلوه ، وما خالفها حرفوه ، أو ردّوه ، وإن كان قطعياً ، فقد رتبوا أصول الاستدلال كالتالى كما ورد في شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار :

« أن الدلالة أربعة ، حجة العقل ، والكتاب ، والسنة ، والاجماع ^(١) »

فقدم حجة العقل على الكتاب والسنة والاجماع ، وجاء في الكتاب نفسه في الرد على أهل السنة المثبتين للصفات كالعلم والقدرة قوله : « وربما يستدلون (يعنى المثبتين للصفات) بالسمع على اثبات القدرة لله تعالى فيقولون : انه تعالى قال : (والسمااء بنيناها بأيد) أى بقوة . وقال : (هو أشد منهم قوة) والأصل في الجواب عن ذلك أن الاستدلال بالسمع على هذه المسألة غير ممكن لأن صحة السمع تنبني على كونه عدلاً حكماً ^(٢) » . وهذا مُتَحَرِّفٌ خطير .. اذا كيف تجرأ وأعلى القول بأن الاستدلال على علم الله وقدرته بالسمع غير ممكن ؟! سبحان الله ! فالسمع هو خبر الله عن نفسه وثبوته قطعياً باجماعهم مع المسلمين ، لكنهم جعلوا لمذهبهم قواعد عقلية وعرضوا القرآن عليها فما لم يوافقها منه حرفوه أو تجاهلوه .

ولقد شخص ابن تيمية رحمه الله هذا الانحراف عندهم وعند غيرهم من أصحاب الاتجاهات العقلية فقال : « وانما عمدة الكلام عندهم ومعظمه هو تلك القضايا التي يسمونها العقليات وهى أصول دينهم ، وقد بنوها على مقاييس تستلزم رد كثير مما جاءت به السنة الصحيحة فلحقهم الذم من جهة ضعف المقاييس التي بنوا عليها ومن جهة ردهم لما جاءت به السنة ^(٣) » .

وفي استدلالهم على خلق الانسان لأفعاله قالوا : « والاستدلال على هذه المسألة بالسمع متعذر » ^(٤) .

٢ - القول بأنه لا حاجة في معرفة الله تعالى وأسمائه الى السمع ، فالعقل يستقل في زعمهم بالعلم بالله تعالى ، وتحديد أسمائه فقالوا : « معرفة الله تعالى لا تنال الا بحجة العقل ^(٥) » وقد تحجروا واسعا حين قالوا : « العلم بالله تعالى ليس ضروريا وانما هو اكتسابى ^(٦) » وهم بهذا ينكرون معرفة الله بالسمع ، والضرورة والفترة ، ويقصرون المعرفة بالله تعالى على النظر

(١) شرح الاصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٨٨ تحقيق د. عبدالكريم عثمان .

(٢) شرح الاصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٣) الفتاوى لابن تيمية جمع وتحقيق ابن قاسم المجلد ٢ ص ٧ .

(٤) شرح الاصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٣٥٥ .

(٥) شرح الاصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٥٢ .

(٦) شرح الاصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٥٢ .

العقلي^(١) . مع العلم أنَّ عامة المسلمين وعامة المؤمنين بالرسول انما يعرفون الله عن طريق السمع ، والضرورة الفطرية ، والتقليد ؛ بالتربية والقُدوة ، وليس عندهم أهلية وقدرة على النظر العقلي ، كالعلماء والمفكرين؛ فهل يخرجونهم من الايمان بالله ؟ لا يتأتى لهم ذلك . ويرون أنه لا يمكن معرفة أسماء الله تعالى ، وكونه موجودا وقادرا وحيا وسميعا وبصيرا .. الخ . الا بالنظر في الحوادث والمخلوقات وأن يجب على المكلف النظر العقلي حتى يتوصل بذلك الى معرفة أسماء الله تعالى^(٢) ، ولا يكفيهم وروده بالسمع عن الله تعالى ورسوله بالوحي الصادق !

٣ - الحكم على الله تعالى بما لا يليق بجلاله ، بمحض العقل البشري القاصر وانكار الصفات لله تعالى ، فقد وردت عن المعتزلة عبارات وأحكام عقلية فيها جرأة وتطاول على الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته ، وقد وصل بهم التطرف - بسبب اتجاههم العقلي - الى القول بأنه يجب على الله : أن يفعل كذا ، ولا يجوز أن يفعل كذا ولا يقدر على كذا ، ولا يستطيع كذا^(٣) ، ويقبح منه كذا ... الخ من العبارات كما سيأتى .

فانه نتيجة لتقديمهم العقل على كلام الله وكلام رسول الله توصلوا الى نفى صفات الله تعالى التي أثبتتها لنفسه وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم ، واصطنعوا لذلك حججا عقلية ، فنفوا أن يكون لله علم ، أو قدرة ، أو حياة ، أو سمع ، أو بصر ، أو كلام^(٤) .. الخ الصفات التي وردت^(٥) وحين قيدوا أسماء الله وصفاته العقلية : جعلوا الانسان خالقا مع الله ؛ فزعموا أن الله تعالى : « قادر على كل ما هو مقدور له ، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم^(٦) .

وقالوا : « أنه تعالى اذا علم أن صلاحنا في بعثة الرسل وأن نتعبد بالشرعية وحب أن يبعث وتتعبد ، ومن العدل الا يُخلَّ بما هو واجب عليه^(٧) . وقولهم : « وكذلك الوعد الوعيد داخل في العدل ، لأنه كلام في أنه تعالى اذا وعد

(١) المصدر السابق ص ٤٥ وقد فصل شرح هذه المسألة من ص ٤٠ الى ٦٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ - ٦٦ .

(٣) راجع شرح الاصول الخمسة ص ١٢٣ . ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٤٥ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ وراجع المعتزلة ص ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ والفرق بين الفرق ص ٩٣ - ١١٦ - ١٦٩ وشرح الطحاوية ص ٤٦٨ .

(٤) راجع الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٩٣ - ٩٤ وشرح الاصول الخمسة للقاضى عبدالجبار ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٥) أي وردت في كتاب وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(٦) شرح الطحاوية ص ٧٥ تحقيق أحمد شاكر طبعة الرياض والفرق بين الفرق ص ٩٤ وشرح الاصول الخمسة للقاضى عبدالجبار ص ٣٤٥ .

(٧) شرح الاصول الخمسة ص ١٢٣ .

المطيعين بالثواب ، وتوعد العصاة بالعقاب فلا بد من أن يفعل ولا يخل في وعده ولا وعيده (١) .

وهكذا يشعر القارئ وهو يستعرض نصوصهم وكأنهم يضعون صلاحيات وواجبات وكأنهم المسيطرون على ملك الله وحكمه ، ولو أن أحدهم وضع هذه الاحكام لملك من ملوك الدنيا ، لما قال هذه العبارات في حقه تأديبا ، فكيف وهي في حق الله ؟ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وهكذا . انما أركستهم عقولهم التي اعتمدوا عليها ، وتَنَكَّبُوا كلام الله ، ولم تقف بهم جرأتهم الى هذا الحد ، بل تجرأوا بعقولهم القاصرة الى ما هو أشنع وهذه نبذة عن مقولاتهم : قال صاحب الاصول الخمسة في معرض كلامه عن النبوة ووجه اتصالها بالعدل : « ووجه اتصاله (أى الكلام بالنبوات) بباب العدل هو أنه كلام في أنه تعالى اذا علم أن صلاحنا يتعلق بهذه الشرعيات فلا بد أن يعرفناها لكيلا يكون محلا بما هو واجب عليه (٢) » وقال في بعث الله للرسول وتأيدته بالمعجز : « ولا يجوز له (أي الله تعالى) الاخلال به (٣) »

والبغدادية من المعتزلة : « أوجبت على الله تعالى أن يفعل بالعصاة ما يستحقون لا محالة (٤) » .

وقال النُّظَّام (من المعتزلة) : بأن « الله لا يستطيع أن يفعل الشر ولا يقدر أن يظلم أحدا أصلا (٥) » وأكثر المعتزلة خالفوه في هذا .

وقال بعضهم بأن الله تعالى لا يقدر « على أن يترك الأصلح لما ليس بأصلح (٦) » . وقالوا : « يجب على الله ألا يختار القبيح بوجه من الوجوه (٧) » .

وقالوا : « ان العقاب اذا كان لطفًا للمكلف فلا بد من أن يعرفه الله تعالى أنه يفعله به والا كان محلا بما وجب عليه (٨) » .

وقالوا : « واجب على الله تعالى أن يخلق الخلق لأن خلقهم فيه نفع لهم وصلاح (٩) » .

(١) شرح الاصول الخمسة ص ١٢٣ .

(٢) شرح الاصول الخمسة ص ٥٦٣ .

(٣) شرح الاصول الخمسة ص ٥٦٤ .

(٤) شرح الاصول الخمسة ص ٦٤٥ .

(٥) الفرق بين الفرق ص ١١٥ - ١١٦ . والمعتزلة لزهدى حسن ص ٩٨ - ٩٩ .

(٦) حاشية شرح الاصول الخمسة لعبدالكريم عثمان ص ٣١٣ .

(٧) شرح الاصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص ٣١٧ .

(٨) شرح الاصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص ٦٤٧ .

(٩) كتاب (المعتزلة) زهدى حسن جارالله ص ١٠٣ .

ويبدو أن أكثر المعتزلة تطاولوا وجرأة على الله (التَّظَام) فن عباراته : أن الله عز وجل :
« لا يقدر أن يفعل عباده خلاف فيما فيه صلاحهم ولا يقدر على أن ينقص من نعيم أهل الجنة ذرة لأن نعيمهم صلاح لهم والنقصان فما فيه صلاح ، ظلم لهم عنده ولا يقدر أن يزيد في عذاب أهل النار ذرة ولا على أن ينقص من عذابهم شيئاً^(١) » .

وزعم أيضا « أن الله تعالى لا يقدر أن يخرج أحدا من أهل الجنة عنها ولا يقدر على أن يلقي في النار من ليس من أهل النار وقال لو وقف طفل على شفير جهنم لم يكن الله قادرا على القائه فيها وقدر الطفل على القاء نفسه فيها وقدرت الزبانية أيضا على القائه فيها^(٢) » الخ . تعالى الله وتقدس عما يقوله انظالمون !

وهكذا أطلقوا لعقولهم العنان ، في حين أن الانسان بعقله لم يدرك نفسه ، وروحه وعقله وضميره ، فكيف يجزؤ بقصوره وقدرته الضئيلة المحدودة في الزمان والمكان ، والطاقة والامكانيات ، على الخوض بالغيب ، دون علم من الله بل يرد ويعارض ما جاء عن الله تعالى ورسوله المعصوم ؟ سبحان الله !

٤ - اثبات خالق مع الله بقولهم « أن الله تعالى لا يجوز أن يكون خالقا لأفعال العباد^(٣) » وأن « أفعال العباد غير مخلوقة فيهم وأنهم المحدثون لها^(٤) » وأغلقوا باب الهداية على أنفسهم في هذه المسألة بقولهم « والاستدلال بالسمع على هذه المسألة (خلق أفعال العباد) متعذر^(٥) » وجنوا ثمرة هذه العقلية ، باثبات خالق مع الله ، وهو الانسان الذي يخلق أفعاله ، فوقعوا في شر مما فروا منه ، حيث فروا من كلام الله ، في اثبات قَدَرِهِ في الخير والشر الى أحكام عقولهم ، فوكلمهم الله اليها وبئس البديل .

فقالوا : « أفعال العباد لا يجوز أن توصف بأنها من الله تعالى ومن عنده ومن قبله^(٦) » كذا بهذا التأكيد !

٥ - تكذيب ما ورد في السنة الصحيحة ؛ اذا خالف رأيهم . والظعن في بعض الصحابة ، رواة الحديث ، وتحريف القرآن اذا جاء النص في ما يخالف عقلياتهم ، وهذا يتضح في نفهم صفات الله مثل الكلام ، والقدرة والارادة ، والمشئة .. الخ .

(١) عن الفرق بين الفرق ص ١١٦ .

(٢) عن الفرق بين الفرق ص ١١٦ .

(٣) شرح الاصول الخمسة ص ٣٤٥ .

(٤) شرح الاصول الخمسة ص ٣٢٣ وانظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٩٤ .

(٥) شرح الاصول الخمسة ص ٣٥٥ .

(٦) شرح الاصول الخمسة ص ٧٧٨ .

وحيث أن استعراض هذا الموضوع يطول لأنه يشمل غالب أصولهم فسأكتفى بمثلين يدلان على تأويلهم للقرآن وانكارهم للسنة :

أحدهما : نفى رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة فقد وردت في القرآن ^(١) بآيات صحيحة صريحة مثل قوله تعالى :

« وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » ^(٢)

كما ورد في السنة الصحيحة في الحديث الذي رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد في مسنده وهو قوله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيْنًا ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ » ^(٣)

ومع هذا ردوه : لأنه يخالف أصولهم العقلية ، فقال القاضى عبد الجبار في هذا الحديث : « فيجب أن نقطع أنه كذب على النبى صلى الله عليه وسلم وأنه لم يقله ، وإن قاله فإنه قاله حكاية عن قوم » ^(٤) مع العلم أن الأحاديث الواردة في الرؤية ، معلومة الصحة بطرق وروايات كثيرة في الصحيحين والسنن والمسانيد وبأسانيد صحيحة ^(٥) .

الثانى : الشفاعة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأهل الكبائر من أمته ، فقد ثبت في السنة الصحيحة ، أنه صلى الله عليه وسلم ، يشفع لأهل الكبائر من أمته ممن دخل النار فيخرجون منها ، في أحاديث رواها البخارى ومسلم ، وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد ^(٦) .

وقد أنكرت المعتزلة والخوارج هذه الشفاعة رغم تواترها ^(٧) ، لأنها لا توافق أصولهم العقلية .

٦ - ابتداع أصول ومبادئ في العقيدة لم ترد عن الله تعالى ، ولم تثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم .

منها : قولهم أن أصول الايمان والعقيدة خمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد ،

(١) أنظر الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل تحقيق عبد الرحمن عميره ص ١٢٧ .

(٢) الآية (٢٢ - ٢٣) سورة القيامة .

(٣) رواه البخارى في كتاب التوحيد باب قول الله (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) ومسلم في كتاب المساجد فضل

صلاة الصبح والعصر رقم ٢١١ .

(٤) شرح الاصول الخمسة ص ٢٦٨ .

(٥) أنظر شرح الطحاوية ص ١٣٤ تحقيق أحمد شاكر .

(٦) أنظر شرح الطحاوية ص ١٧٨ - ١٨٠ تحقيق أحمد شاكر .

(٧) أنظر شرح الطحاوية ص ١٧٨ - ١٨٠ تحقيق أحمد شاكر .

والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١) ، مع العلم أن ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الصحيحة ، وأجمعت عليه الأمة ، أن أركان الايمان هي : الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . وأركان الاسلام : شهادة - الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا كما ورد في حديث جبريل المشهور^(٢) . ومن أصولهم المبتدعة قولهم :

بأن القرآن مخلوق^(٣) متابعة للجهنم^(٤) . ابتداع أسماء لله لم يرد بها الشرع مثل أنه « مدرك المدركات »^(٥) . وتسميته تعالى (القديم)^(٦) ، والله تعالى سمي نفسه (الأول)^(٧) وضرهم لله الأمثال وقياسهم له على مخلوقاته ومشاهداتهم في حياتهم لذلك سماهم أهل السنة مشبهة الأفعال . وقولهم حتى لا بحياة عالم لا يعلم قادر لا بقدرة^(٨) كل هذه أحكام عقلية لا طاقة لهم بها ، ولا يعلم بها الا الله .

ولم يترك المعتزلة أصل من أصول العقيدة الا خاضوا فيه بعقولهم وأحدثوا فيه مقولات فلسفية وكلامية تخرجه عن الخط الشرعي ، الذي جاءت به الأنبياء ، وقد شملت تحريفاتهم كل مسائل العقيدة ، وقضايا الغيب والشهادة . من العلم بالله والوحي والقرآن والرسالة والنبوة

(١) شرح الاصول الخمسة ص ١٢٣ .

(٢) الحديث : عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر . ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبته الى ركبته . ووضع كفيه على فخذه وقال : يا محمد أخبرني عن الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضا وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا » قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الايمان . قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : صدقت .. الخ الحديث .

وهذا نص رواية مسلم وقد رواه بهذا النص الترمذي وأبو داود والنسائي ، والبخاري ومسلم بطرق أخرى أيضا عن أبي هريرة وأبي ذر - راجع صحيح مسلم كتاب الايمان الحديث الأول ، وصحيح البخاري كتاب الايمان باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) أنظر ص ٩٤ الفرق بين الفرق للبغدادى .

(٤) راجع الرد على الجهمية والزندقة لأحمد بن حنبل تحقيق د. عبدالرحمن عميره ص ١١٥ وما بعدها .

(٥) شرح الاصول الخمسة ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٦) المصدر السابق ص ١٨١ .

(٧) قال تعالى « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » ٣ الحديد .

(٨) راجع الرسالة التدميرية - لابن تيمية - ص ١٢ .

والأنبياء والملائكة والجن والشياطين والآخرة والبعث والجنة والنار والجزاء والحساب والبرزخ ،
والحلال والحرام ، والحدود ، والمعجزات والكرامات ، والعبادات ، والأحكام ، .. الخ .
كل هذه الأمور ، وغيرها : بحثوها من خلال عقلياتهم المنحرفة وجل أحكامهم - خاصة في
أمور الغيب - تخالف وتخرج عما جاء عن الله ورسوله ، ومع ذلك هم من أكثر الناس تعطيلاً
لعقولهم في مجالات تعمير الحياة الدنيا وبناء الحضارة بما يعود على الأمة بالخير والرخاء لانهم
استغلوا عقولهم وطاقتهم بالسفسطة والجدل العقيم .

وأخيراً : تمخضت المعتزلة عن عشرين فرقة^(١) كل واحدة تكفر الأخرى ، وقد أجهزت
هي على نفسها بأيديها ، وأيدى المؤمنين - من أهل السنة - حين أرادت أن تفرض أصولها بقوة
السيف ، وسلطة الدولة ، في عهد المأمون والمعتمد والواثق ، مع أنها كانت ترفع شعار حرية
الفكر ! فكانت أول فرقة حجرت على حرية الفكر بالقمع والتهديد ، والسجن والتعذيب ،
والقتل والنفي ، فيا لها من عقلية تلك التي تهين العلماء ، والمفكرين والصالحين ، من عباد الله
المشهود لهم بالفضل ! انها عقلية المعتزلة (المفكرون الأحرار !) كما يزعم أصحاب العقلية
الحديثة الذين صوروا هذه الفرقة على أنها الفرقة المظلومة ، وحكموا على الأمة الاسلامية على
أنها ظالمة .

ولا يهمننا - في هذا البحث - تصفية الحساب مع المعتزلة ، فقد صفاها التاريخ ، لكن لنا
كلمة ، وللعقلين المحدثين اعتراض يناسب موضوع البحث : فقد يتساءلون بقولهم : ألم يكن
للمعتزلة دور ايجابي في الدفاع عن الاسلام ؟

وأقول : في الحقيقة لقد كان للمعتزلة جولة وصول في الدفاع عن الاسلام والزام بعض
خصومه الكافرين ، من مجوس ويهود ونصارى وصابئة وزنادقة وسمنية وغيرهم ، الحجة .
وكانت لهم بهذا الصدد مواقف مشهودة ، في إقناع الخصوم والرد على شبهاتهم وإيقافهم عند
حدودهم ، واشتهر منهم مجادلون مشاهير ، في المناظرات ، بقوة الحجة والبيان .. لكن ..
لكننا نقول : هذا الدور الايجابي من هذه الزاوية كانت له سلبيات خطيرة من نواحي
أخرى .. ذلك أنهم فعلاً أدخلوا بعض الأفراد في الاسلام ، وأسكتوا بعض الخصوم وكفّوا
شرهم ، وقطعوا ألسنتهم ، لكن ذلك مقابل أضرار أخرى لحقت بالمسلمين والاسلام ، من
جاء هذا النصر الذي حالقهم منها :

أ - الغرور الذي أصابهم ، نتيجة هذه الانتصارات العقلية والفكرية أمام الخصوم ، مما
جعلهم يحاولون فرض آرائهم بقوة السيف ، وسلطة الخلافة !

(١) راجع الفرق بين الفرق ص ٩٣ .

ب - داخل الأمة الاسلامية صار لهم دور خطير ، عندما شكّلوا جبهة مضادة لأهل السنة ، حاة الاسلام الحقيقيين ، والذين يشكلون غالبية المسلمين من الخاصة والعامة ، ومنهم الأئمة والخلفاء والقواد ! وبهذه الموازنة طغى ضررهم على نفعهم .

ج - تجميد المعركة بين المسلمين والكفار ، في الداخل والخارج والاستعاضة عن ذلك بمعارك كلامية ، ونقل الصراع من الهجوم الى الدفاع ومن ساحات الجهاد ، والقوة والعزة ، الى المراء والجدل السوفسطائي الذي يضيع الوقت ، ويشتت الجهد ، ويحبط الأجر ، ويعطل حدود الله التي فرضها لمصلحة العباد .

د - اثاره الفتن والثورات الداخلية وعرض الأهواء والأضغان المذهبية .

هـ - تحويل مسار الحياة الاسلامية ، من الواقع العملي البناء الى الجنوح الى المثاليات والنظريات .

هذا ... ولن ينسى التاريخ ما فعلته المعتزلة - ادعاء الحرية - من إساءات إلى مفهوم الحرية الاسلامية ، فبالرغم من أن الاسلام لا يجبر أحداً على اعتقاد معين ، إلا أن المعتزلة حينما وصلوا الى الوزارة في دولة الخلافة ظهروا على حقيقتهم كأى فرقة ضالة ، وأجبروا علماء المسلمين وأئمتهم وعامتهم على الاعتقاد بعقائدهم الفاسدة - رغم مخالفتها لنصوص القرآن والسنة - وامتحانوا المسلمين امتحانا قاسيا ومشينا ، لقد أهانوا اكابر ائمة المسلمين كأحمد بن حنبل ومحمد بن نوح وضربوهم بالسياط ، وكبلوهم بالحديد وسجنوهم وكل الدنيا تعرف محنة أحمد بن حنبل رضى الله عنه التي نصر الله بها الحق وهزم بها الضلال . ومع الأسف أرى أفعلاما جهولة بدأت تحاول استنبات تلك الفرق وحيائها من جديد جهلاً أو تجاهلاً لضررها على عقيدة المسلمين ووحدتهم .

ان فرقة المعتزلة - بحق - هى المرأة الصادقة للاتجاهات العقلية المنحرفة القديمة والحديثة ، وأنا مقتنع أن عرضها كاف في مثل هذا البحث لتصوير الاتجاهات العقلية القديمة ، لذلك سأكتفى بهذه الفرقة وعرضها كنموذج فلم تخرج قبلها ولا بعدها فرقة تضارعها في قوة المنطق وشمول المنهج فاخوان الصفا - مثلاً - ومن جاء بعدهم ، من فلاسفة وكلاميين ، يعتبرون عالة على المعتزلة في كثير من أفكارهم وآرائهم .

كما أن العقلية الحديثة إتكتأت على آرائهم في كثير من قضايا العقيدة وأصول الدين ، بعد أن تلقن منها المسلمون دروساً قاسية ومؤلمة وعانت فيها الامة الاسلامية ألم الفرقة والإختلاف هذا ونسأل العافية والسلامة من كل ضلالة وصلى الله وسلم على القائل تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهار لا يزيغ عنها الا هالك ، وعلى آله وصحبه .

ناصر بن عبدالكريم العقل